الموسم

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

مجلة الموسم (العدد 13) – 1992 – 1413

ارشيو نشريات
جامعة تخصصي دارالحد
٢١٤٣٨

الرافد

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

Shiabooks.net

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة

ترسل جميع المراسلات والطلبات بإسم صاحب المجلة الى :

المركز الوثائقي لتراث اهل البيت عليهم السلام

اكاديمية الكوفة

هولندا

AL KUFA HOUSE POST BUS 1113
3260 AC OUD - BEIJRLAND
HOLLAND FAX: 01860 - 20712

الاشتراك السنوي للأفراد ٥٠ $ وللمؤسسات ١٠٠ $.

مشهد الإمام الحسين بحلب

(مذكرة إيضاحية ووصف معماري لاعمال ترميمه)

محمد علي سماقية
المشرف على ترميم المشهد

كانت البداية شاقة وصعبة ، فالمكان مجموعة من الأنقاض المتراكمة والمتناثرة إلى جانب بقايا الجدران المتداعية .

وقبل المباشرة بالترميم رقّمنا كل ركن من أركان البناء برقم خاص ، ثم بدأنا برفع الأنقاض من كل ركن على حدة ، ووضعها في مربعات كبيرة أعدت لذلك حتى يتسنى لنا دراسة الأُطر المعمارية للمكان بشكل جيد قبل إعادة بنائه . وكنا نعرض الأتربة على الغربال حتى نتمكن من التقاط جميع القطع الصغيرة التي قد تكون عليها جزء من زخرفة ، أو شكل خاص ، أو كتابة .

وخلال عملية رفع الأنقاض اكتشفنا أنواعاً من الذخيرة ، قنابل كروية الشكل بقطر ٢٠ سم ، ورصاص مختلف الأنواع والقياسات ، وقد سلمت جميعها إلى السلطات العسكرية . وكذلك وجدنا بقايا عظام بشرية ، نَخِرة ، وقطع زجاج للمصابيح وبعض النقود التي تعود إلى عصور مختلفة .

وبعد الإنتهاء من رفع الأنقاض قمنا بعملية سَهرٍ للجدران من كل الإتجاهات حتى توضح لنا مخطط البناء بشكل كامل . حيث قمنا برسمه كوثيقة أولى للبناء (وهو يختلف قليلاً عن المخطط الذي وضعه هرزفلد عن المكان) . بعد ذلك بدأت أعمال البناء ولحسن الحظ إننا عثرنا على نماذج للزخارف المتعددة والأشكال المختلفة للبناء واستطعنا أن نكوّن فكرة كاملة عنها وعن موقعها بالضبط بعد عملية جمعها إلى بعضها بعضاً بدقة وعناية حيث يتسنى لنا إكتمال الأقسام الناقصة بنفس الشكل والأسلوب المتبع في النحت . أما الأحجار العادية فقد فُقد أغلبها مما اضطرنا الأمر إلى استعمال أحجار جديدة بنفس القياسات والمواصفات الموجودة . وقد حافظنا خلال العمل على كل حجر قديم ، وكل كسرة مزخرفة أو مكتوبة ووضعناها في مكانها حتى تكون دليلاً للأقسام الجديدة . فمثلاً واجهة الإيوان تمكنا من معرفة زخارفها من خلال أربعة أحجارٍ قديمة أعدناها إلى الواجهة وكذلك الكتابة الموجودة في أعلى الإيوان ، فهي تتألف أصلاً من أربعة أحجار كبيرة من الحجر الأصفر القاسي النَّزق وجدناها تحولت بعد الدَّمار إلى ثماني عشرة قطعة ، قمنا بجمعها وتركيبها ثم

ترميمها بعد البناء . أما أشكال السقوف فقد احتفظنا بقطع كثيرة أساسية منها ، بحيث لم يبق ركن إلا وفيه دليل قديم يُنبيء عنه شكلاً وموضوعاً .

وقد اعترضنا خلال العمل مشكلة تنظيف المطبخ الذي بقي بناؤه سليماً لم يتأثر بالدمار الذي لحق بالموقع . لقد كانت آثار الدخان لاصقة بالجدران والسقف بشكل كثيف جداً وبلون يميل إلى السواد الشديد . ولم تجد نفعاً جميع المواد الكيماوية التي استعملت في أعمال التنظيف ، حيث تبين لنا بعد ذلك أن الحجر إمتص هـذا اللون إلى عمق تجاوز ٣ سنتيمترات . فكان لا بد لنا من نحت الجدران والسقوف إلى عمق ٤ سنتيمترات حتى تمكنا من رفع تلك الطبقة . ورغم ذلك بقيت بعض أجزاء الجدران متأثرة ، ولكن بلون بني فاتح .

إستخدمنا في بلاط الأرض الحجر الأصفر القديم الذي اشتهرت به مدينة حلب ، والمنتزع من البيوت القديمة التي هدمتها البلدية لشق الطرقات وإنشاء الحدائق ، وكنا موفقين في ذلك تمام التوفيق .

لقد زار الموقع خلال العمل رجل طاعن في السن ، وأخذ يتجول في أقسامه ويحرك بيده إشارة الإستغراب . فقلت له : ما بك يا عم ، فقال لي : يا بني هذا المكان من عمل الملوك فهل تستطيعون أنتم إعادته إلى ما كان عليه ؟» فقلت له : أرجو الله أن يمدَّ في عمرك لتراه كما تعرفه سابقاً . وقد زار المكان بعد الإنتهاء من إعادة بنائه وترميمه أشخاص كثر ، فإذا بهم والدهشة تعقد ألسنتهم أمام الصورة التي عرفوها له . وإذا هم لا يتورعون عن إستعادة ذكرياتهم فيه ، وما أجملها من ذكريات !

وإذا قام البناء على الصورة التي كان عليها سابقاً فالفضل كل الفضل يعود إلى البنائين والنحاتين المهرة والعمال الفنيين الذين عملوا فيه بجد وإخلاص ، وكأني بهم أحفاد أولئك البنائين القدامى الذين عمروا المكان ، والجدير بالذكر أننا استطعنا أن نحول العمل في هذه الورشة إلى مدرسة تخرج منها عدد من الفنيين المتمرِّسين في أعمال البناء والنحت والزخرفة .

وقد قامت بالإنفاق على هذا المشروع الهام جمعية الإعمار والإحسان التي تأسست خصيصاً لهذه الغاية ، وأجيز لها جمع التبرعات لإنجاز عملها الجليل الخالد ، بإشراف مديرية آثار حلب . فلها الشكر المشفوع بالفخر والإعتزاز لانجاز عملها في هذه الآبدة التاريخية الهامة التي تعتبر أجمل الأبنية الإسلامية في العصر الأيوبي .

وصف معماري للبناء :

يؤلف البناء بمجموعه شكلاً مستطيلاً أبعاده ٧٤ × ٣٨,٥ متر ، وينقسم إلى مجموعتين : الأولى عبارة عن ساحة سماوية واسعة أبعادها ٤٢ × ٣٦,٥ م وليس فيها ما يسترعي الإنتباه سوى خمس زمر من النوافذ المزدوجة ومحراب في الجدار الجنوبي ، وقد أعدت هذه الساحة ليبنى حولها غرف أيام الملك العزيز بن الملك الظاهر غازي (١٢١٦ ـ ١٢٣٦) . وإلى الغرب من هذه الساحة توجد المجموعة الثانية للبناء ، ونشاهد مدخلها الرئيسي الفخم وعلى جانبيه مجموعة من الشبابيك يحمي نجفتها قوس عاتق ، وهو تقليد عريق عزيز للعمارة في سورية الشمالية .

قبل الدخول في تفاصيل البناء ، لا بد من كلمة نقولها عن تطوره والمراحل التي مر بها حتى وصل إلى الشكل الذي نراه في وقتنا الحاضر .

يخيل إلينا عند مطالعة تاريخ البناء كما أورده المؤرخون ولا سيما بن أبي طَي أنه يعود بمجموعه إلى العصر الأيوبي . ولم يتعرض مؤرخ إلى ما قبل ذلك العصر ، أو ذكر أثراً لبناء أقدم من ذلك . وأرى نتيجة للإستقصاء الطويل والدراسة الموضوعية للبناء خلال أعمال الترميم ، أن هناك دلائل كثيرة تشير إلى بعض أجزائه يعود إلى زمن أقدم من عصر البناء الحالي . وتبعاً لذلك يمكننا القول أن البناء مر بخمس مراحل قبل الوصول إلى مرحلته الراهنة وهذه المراحل هي :

١ ـ تبدأ المرحلة الأولى بظهور رمز ارتفع تذكاراً لتلك الحادثة المؤلمة وهي القبة الواقعة جنوبي المدخل والمرمز إليها بحرف (A) حيث بنيت فوق الصخرة التي وضع عليها رأس الحسين الشريف رضي الله عنه في أحدى مراحل نقله إلى يزيد بن معاوية . والزمن الذي يمكننا تحديده لظهورها هو أيام الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٧٢٠ م) .

٢ ـ ثم يأتي التوسع الأول للبناء في عهد سيف الدولة الحمداني ٩٤٤ م إذ بُني في عهده المصلى مع الصحن [1] الملحق به . ودليلنا على ذلك أن محراب المصلى الذي يعود إلى العصر الأيوبي نراه قد حشر في الجدار بشكل أفقد الإنسجام بينه وبين أطرانه ، إذا قطع سرية السوقات [2] وجعلها تتعثر على جانبي المحراب مما يخالف نظرية التناسق والتناظر المعروفة في الفن المعماري لذلك العصر . ومن جهة ثانية تكشف لنا في أثناء سير العمل بقايا جدار في الجهة الغربية للبناء يقطع الإيوان والغرف المجاورة له ، هذا الجدار كان بلا شك يؤلف تصوينة للصحن المبني زمن سيف الدولة وقد هدم في المرحلة الثالثة لضرورة توسيع المكان .

٣ ـ المرحلة الثالثة من البناء تمت أيام الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين الزنكي (١١٧٤ ـ ١١٨١ م) حيث تم بناء الإيوان والرواق الشمالي المرموز إليه بحرف (G) مع الغرفتين المرموز إليهما بحرفي (H- I) .

٤ ـ والمرحلة الرابعة من البناء نلاحظها بوضوح لأن بناءها يستند إلى الجدار المجاور دون أن يتشابك معه ، كما تقضي بذلك دقة ومتانة البناء . وقد تمت في عهد الملك الظاهر غازي إبن صلاح الدين الأيوبي (١١٨٦ ـ ١٢١٦ م) وقد رمزنا إليها بالأحرف : (J- K- L- M) .

٥ ـ أما المرحلة الخامسة من التوسيع وهي الباحة الخارجية للبناء فقد تمت في أيام الملك محمد بن الملك الظاهر غازي (١٢١٦ ـ ١٢٣٧ م) حيث إستأذن القاضي بهاء الدين بن الخشاب ببناء غرف ، ولم يكتمل البناء بسبب دخول التتار حلب .

تلك هي المراحل الخمس التي مر بها تطور البناء كما توصلت إليها من خلال إشرافي على أعمال الترميم . وأترك المجال مفتوحاً لكل رأي أو مناقشة حول هذا الموضوع للوصول إلى الحقيقة التي ننشدها جميعاً .

بعد هذا نعود إلى وصف البناء ونشير بشكل خاص إلى الأطر المعمارية المنوعة التي استخدمت فيه والتي لانجد لها مثيلاً من حيث تنوعها في أي بناء إسلامي في سورية . فقد تفنن المعماريون وأجادوا في التعبير عن نوازعهم الفنية وحسهم الدقيق المرهف في (صياغة هذا البناء) إذا جاز

(١) صحن الدار هو الساحة السماوية المكشوفة منه .

(٢) تعبير يطلق في حلب على تسلسل وضع الأحجار فوق بعضها بعضاً في البناء .

لنا التعبير .

فالمدخل يرتفع عن الأرض ، ويتألف من عتبة صغيرة في صدرها باب متوسط يتكون من أحجار صفراء مصقولة يعلـو نجفته شريط هندسي عريض مفرز من وسطه ، يتشابك ليؤلف إطاراً تزيينياً يحيط بحجر التأريخ . ويعلو هذا الإطار شكل يمثل مصابيح نافرة كروية الشكل لها قاعدة وعنق ينفرج في الأعلى ، معلقة بشريط من جانبيها . وهي متناسقة إلى جانب بعضها بعضاً ، بدءاً من أول العتبة إلى نهايتها . ويفصل بين هذه المصابيح شكل هندسي يشبه رأس الخروف إذا نُظر إليه من الأعلى . لقد أراد المعمار من وضع هذا الشكل داخل العتبة أن يعبر عن الآية الكريمة : ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . . .﴾ والمشكاة هنا هي الكُوَّة التي تتمثل في عمق عتبة المدخل والمصباح معلق فيها ، ويمثله الشكل المذكور آنفاً .

وفوق هذا النقش تبدو سبع مقرنصات كبيرة ، ثلاث منها في صدر المدخل وإثنان على كل من جانبيه . وفي أسفل هذه المقرنصات شريط ضيق (١٠سم) يمتد طرفاه حتى نهاية المدخل . وزُين هذا الشريط بجذوع الكرمة وأوراقها وعناقيدها ، فترى الجذع يلتف وينثني بمرونة ورشاقة ليحتضن عناقيد العنب وأوراقها بتناسق تام . إنه أمر نادر في العمارة الإسلامية . ولعل المعمار أراد من إدخال هذا العنصر التزييني في البناء أن يعبر عن قدسية هذه الشجرة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم . وهناك على المقرنصات الثلاث التي في صدر الباب كتابات سنتعرض لها في حينها إلى جانب كتابة جانبي المدخل .

بعد هذه المقرنصات الكبيرة تأتي مقرنصات أصغر حجماً رشيقة القد ، تساهم في تدوير سقف المدخل ، ونلاحظ في الزوايا مقرنصات متقابلة يجمعها من الأعلى شكل زهرة من أربع أوراق . ويستدير المكان أكثر ويقترب من نقطة الوسط أكثر بواسطة صف ثالث من المقرنصات ذي القاعدة العريضة . وهكذا حتى تصل إلى حبة العقد وهي شكل صدفة بحرية مضلعة .

وإذا نظرنا إلى قوس الباب من الخارج نجده يتثنى ويضيق من الأسفل ، وينفرج ويتوسع من الأعلى حتى يستوي مع المواجهة . ونشاهد بين ثناياه أشكالاً هندسية من الحجر الأسود .

ونجتاز الباب لنجد أنفسنا أمام عتبة ثانية ، أهم مايميزها هو سقفها الحجري المصنوع على شاكلة السقوف المدهونة حيث تملأ الفراغات بين الأعمدة أشكال متعددة من الأزهار .

وتجتاز هذه العتبة إلى ساحة سماوية أبعادها (١٦×١٥,٥) متراً في هذه الساحة فتطالعك عدة مرافق من البناء . وأول مايلفت نظرك وأنت فيها الإيوان الضخم الذي يرتكز قوسه من الأمام على عمودين من الحجر الأصفر يعلوهما تاجان من الطراز الإسلامي ، وعلى جانبي قوس الإيوان نقش عربي متداخل يتخلله شريط من الحجر الأسود يؤلف شكلاً هندسياً متناسقاً وفي أعلى الإيوان إطار زخرفي نافر من الحجر يحيط بكتابة تذكر أسماء الأئمة الإثني عشر عند الشيعة الإمامية ، كتبت بالخط الثلث . ويشير شكل الخط إلى أنه يعود إلى العصر الأيوبي . ويوجد في وسط الإيوان محراب صغير ، وفي صدره شباكان واسعان .

وإلى جانب الإيوان غرف صغيرة رمز إليها بالأحرف (C-E-F) وليس مايسترعي الإنتباه سوى الغرفة المرموزة بحرف (C) حيث يوجد فيها محراب صغير للصلاة .

أما المصلى ، ويعرف بالحرم أو القبلية كما هو شائع في بلادنا ، فيقع إلى الجنوب من هذه الساحة وقد رُمز إليه بحرف (B) ويتألف من صالة مستطيلة فيها خمس قباب ، القبة الوسطى يتم الإنتقال بها من المربع إلى الدائرة بواسطة مقرنصات تنتهي بطنف دائري ترتكز عليه القبة . أما القباب الأخرى فيتم الإنتقال من المربع إلى الدائرة بواسطة سراويل موشورية في الزوايا تحول المربع إلى مثمن . ثم يأتي صف من الأحجار يكسر زوايا المثمن ، ويحوله إلى ستة عشر ضلعاً يرتكز عليه إفريز دائري مزخرف ترتكز القبة عليه . وينتهي طرفا المصلى بسقف سريري من الحجر على شكل قوس .

ونلاحظ في المصلى كيف حشر المحراب في جداره في العصر الأيوبي . ويزين واجهته خيط زخرفي متداخل مع بعضه بعضاً يتوسطه بشكل بيضاوي مدبب من الأعلى فيه كتابة تشير إلى اسم بانيه وللمحراب عمودان من المرمر فُقد تاجاهما .

ونعود إلى الباحة لنشاهد الغرفة الواقعة على يسار المدخل والمرموز إليها بحرف (A) حيث نشاهد فيها محراباً صغيراً . وقبة هذه الغرفة هي أول بناء في المكان . وكان الحجر الذي وضع عليه رأس الإمام الحسين رضي الله عنه فيها . ثم نقل إلى مشهد الدكّة أو الشيخ مُحسن ، كما يسميه أهالي حلب ، ووضع عند قبر محسن بن الحسين الذي أجهضت به أمه في هذا المكان . ويقع على بعد خمسمئة متر إلى الجنوب من مشهد الحسين .

ننتقل بعدها لنشاهد الغرفة الواقعة إلى يمين الداخل والمرموز إليها بحرف (H) وفيها محراب صغير ينتهي أعلاه بشكل صدفة ، وله عمودان صغيران رشيقان من الأمام . أما سقف هذه الغرفة فهو سريري على شكل ينطوي قسمه الداخلي إلى الأمام على شكل مثلث .

وإلى جانب هذه الغرفة مدخل صغير يؤدي إلى غرفة أخرى سقفها هرمي الشكل من الحجر ومرموز إليها بحرف (I) .

وفي الطرف الشمالي من الباحة يوجد رواق يتألف سقفه من ثلاث قباب يرتفع عن سوية أرض الباحة قدر (٧٠)سم .

وفي الجانب الشرقي من الرواق مدخل يؤدي إلى «المصنع» وهو المطبخ حيث كان يطبخ الطعام والحلوى أيام المواسم الدينية لتوزع على الفقراء ، ونشاهد في زاوية هذا المطبخ بئراً للماء . أما سقفه فيتألف من أقواس مثلثة الشكل تلتقي مع بعضها بعضاً بضلع حاد ، وتنقطع عند نهايتها لتؤلف شكلاً مربعاً مفتوحاً ينتهي في أعلاه بإفريز نافر على شكل مربعات مجزّأة متناوبة . ويتصل بالمطبخ موقع أعد لدورات المياه ، وسقفه قريب الشبه بسقف المطبخ إلا أنه ينتهي بشكل دائري ، له إفريز ناتىء وقد رمز إلى المكانين بحرفي (J-K) .

وفي الجانب الآخر من الرواق مدخل يؤدي إلى قاعة الإستقبال . وتتألف من قسمين متصلين إلا أن طرازهما يختلف كلياً . فالقاعة الأولى ، وقد رمز إليها بحرف (L) تتألف من ساحة صغيرة في وسطها صهريج للمياه ، وفي أطرافها أواوين مرتفعة . وفي جانب الإيوان الشرقي مُلفّق للهواء «بادنج» . وفي جانب الباحة مدخل يؤدي إلى دهليز ضيق ، سقفه على شكل قوس من الحجر ينعطف شمالاً ليؤدي إلى دورة مياه . أما سقف هذه القاعة تعتبر أجمل ما في هذا البناء من أشكال معمارية . إذ يعتمد على المقرنصات في الإنتقال من المربع إلى الدائرة ، حيث القبة التي يبلغ قطرها

٢٠,٥ متر وارتفاعها عن الأرض ١٤ متر .

وجمال هذه القبة بمقرنصاتها التي تتسم بوضوح الرسم وبساطة خطوطه . وهنا يتجلى ذوق وبراعة معماريي القرنين السادس والسابع الهجريين التي أبعدت أعمالهم عن التفاصيل الإضافية والاقتباس الذي تميَّز به معماريو القرنين الثامن والتاسع الهجريين .

أما القاعة الثانية المرموز إليها بحرف (M) فترتفع عن أرض القاعة الأولى بنفس ارتفاع الأواوين ، وتتميز جدرانها بوجود خزائن لحفظ الكتب والأشياء الأخرى . وفي جدارها الغربي شباكان . أما قبتها فترتكز على رقبة ذات طراز نادر في العمارة الإسلامية . فالزوايا يكسرها محراب كامل متوسط الحجم ، ترتكز مقدمته على عمودين لهما تاج مورق . ونشاهد في قاعدة العمود من الأسفل شكلاً مخروطياً محززاً يزيد من روعة البناء ، ويضفي عليه سحراً خاصاً . أما سقف هذا المحراب فهو على شكل أشعة تبدأ بقاعدة عريضة من الأسفل ، لتجتمع في النهاية عند نصف دائرة . ونلاحظ في أسلوب بنائها إشعاعاً بارزاً قليلاً إلى جانب إشعاع ضامر .

أما الأقسام المتوسطة الواقعة بين هذه المحاريب فهي أيضاً محاريب من طراز آخر ، قليلة التكوين تنتهي بسقف قليل العمق على شكل أشعة الشمس . ويجمع بين هذه المحاريب سراويل مقوسة الجانبين مدببة من الأسفل ، منفرجة من الأعلى ، موشورية الشكل قليلاً ، تنتهي فوق ظهر أقواس واجهة المحارب الثمانية ليأتي بعدها إفريز متدرج مستدير ترتكز عليه القبة .

من المعتقد أن هذا الجناح يُبنى خصيصاً لاستقبال كبار الزوار والضيوف وإقامتهم فيه ، لأن جميع مستلزمات الراحة متوفرة فيه : الماء والهواء ودورة المياه ، مما يساعد على الإختلاء والتعبد والدراسة .

وقبل ختام البحث لابد من الإشارة إلى أن أشكال السقوف في الحجرتين (J-K) نادرة الوجود ، ولانراها إلا في هذا «المشهد» وفي مشهد الدكة القريب منه وجامع العادلية بحلب وقلعة دمشق . كما يتميز هذا البناء وجميع أبنية حلب باستعمال الحجر على نطاق واسع في جميع أعمال البناء ، وذلك لقرب مواقع مقالعه من المدينة ، وتنوع ألوانه من الأبيض إلى الأصفر والزهري . . . الخ . .

أقام روح وريحان على جدث ... سوى الحسين به ظمآن أمينا

كأن أحشاءنا من ذكره أبداً ... تطوى على الجمر أو تحشى سكاكينا

سهلاً فما نقضوا آثار والده ... وإنما نقضوا في قتله الدينا

آل النبي وجدنا حبكم سبباً ... يرضى الإله به عنا ويرضينا

فما نخاطبكم إلا بسادتنا ... ولا نناديكم إلا موالينا

قوم نصلي عليهم حين نذكرهم ... حباً ونلعن أقواماً ملاعينا

أغنتهم عن صفات المادحين لهم ... مدائح الله في طاها وياسينا

(ابو الحسن السري بن أحمد الرفاء الموصلي المتوفى ٣٤٤هـ)